الفائدة السادسة والخمسون:

فضيلة الخاتمة الحسنة

الحمد لله، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ تَسْلِيمًا كَثِيرًا، أَمَّا بَعْدُ:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا } [الفرقان:٦٢].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} [فصلت:٣٧].

فآيات الله عَزَّوَجَلَّ الدالة على عظمته، وعجيب تصرفه في الكون كثيرة، ومنها أنَّ الشهر يبتدئ ثم ينتهي، والعام يبتدأ ثم ينتهي، واليوم يبتدأ ثم ينتهي، والحياة تبتدأ ثم تنتهي، وهكذا يسير الناس وتسير المخلوقات إلى أجلها، قَالَ تَعَالَى: {لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} [الرعد:٣٨]، سواء كان في ذلك بداية الليالي والأيام، أو بداية الشهور والأعوام، أو جنس الإنسان، أو جنس الحيوان، حتى الحياة الدنيا في آخرها سيأتيها الأجل، وتنتهي إلى حياة أخرى ليس لها انتهاء، فإذا كان هذا هو الحال فعلى الإنسان أن يتعظ من تعاقب الليالي والأيام، والشهور والأعوام.

انظر إلى القمر يبدأ هلالًا ثم يَعظم حتى يكون بدرًا منيرًا، ثم يصغر ويصغر حتى يعود كالعرجون القديم، فهكذا الإنسان يخرج من بطن أمه ضعيفًا، ثم يكبر، فإذا كمل بدأ في التقهقر حتى يرجع كما بدأ، ثم إلى الموت.

كما قَالَ تَعَالَى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ

كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [الأحقاف:١٥].

وَقَالَ تَعَالَى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [الروم:٥٤].

والنَّبِيُّ ﷺ يقول: «**يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ**»(١).

والنَّبِيُّ ﷺ يقول: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ**»(٢).

* فالسبيل للاستفادة من هذه الحياة أن يكون آخر العمل صالحًا، نعم، كلما كان الإنسان صالحًا في جميع أحواله، وأطواره هذا أفضل بلا شك، لكن إن عجز، أو فرط، فلا أقل من أن يختم له بالعمل الصالح؛ لأنه إذا ختم له بالعمل الصالح تجاوز الله عَزَّوَجَلَّ عما سلف لاسيما إذا اقترنت به التوبة، قَالَ تَعَالَى: {إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا} [الفرقان:٧٠-٧١].

فلنحرص على أن تكون النهاية طيبة لأنفسنا ولغيرنا، لأن النهاية إذا كانت طيبة بدأنا الحياة الثانية بالطيب، وكنا من أهل الطيب، قَالَ تَعَالَى: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل:٣٢].

انظر تسليم الملائكة على من؟ على الطيبين الذين خُتِم لهم بأعمال أهل الطيب.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٨) عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠٧)، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأما إذا كان آخر العمل سيئًا فهو نذير شؤم لصاحبه لاسيما إذا كان شركًا، أو نفاقًا، أو ما في بابهما؛ لأن الحياة الآخرة تسوء، قَالَ تَعَالَى: {وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النحل:٩٤]، فيستمرون في السوء ويقارنهم السوء عذابًا بأنواعه شربًا، وأكلًا، ولبسًا، وتهكمًا، إلى غير ذلك مما ينالهم، نسأل الله السلامة.

فيا أيها الأخوة بدأ رمضان، ونحن نظنه طويلًا، ثم انتهى رمضان ورأيناه قصيرًا، وهكذا العمر حين يعيش الإنسان يرى أنَّ أمامه عمر طويل ستين سنة، خمسين سنة، سبعين سنة أقل، أكثر.

لكن في الوقت الذي يقرب من النهاية يعرف أن هذا العمر لم يكن شيئًا، يستحضر ماذا قدم؟، ماذا عمل؟، ماذا فعل؟، يجد أنه كان على تفريط، المجتهد عنده قصور فما بالك بالمضيع بالكلية، والله المجتهد يرى قصور نفسه، ويعترف بقوله وفعله، وانظر إلى عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع بشارته بالجنة، يقول: «وَدِدْتُ أَنِّي نَجَوْتُ مِنْهَا كَفَافًا، لاَ لِي وَلاَ عَلَيَّ، لاَ أَتَحَمَّلُهَا حَيًّا وَلاَ مَيِّتًا»(١)، لكن نسأل الله عَزَّوَجَلَّ السلامة والعافية.

* ومن هنا نقول للمسلم الذي وفقه الله في رمضان بشيء من الصلاة، والصيام، والقيام، وحضور الجمعة، والجماعات أن يستمر على ما هو عليه، لا يخرج رمضان ويترك العبادة، والطاعة، والمسارعة، فإننا لا نعبد رمضان العبادة هي لرب رمضان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو حي لا يموت، وقيوم لا ينام.

فلنستمر في الخير، ولنستمر في بذل المعروف من التوحيد فما دونه، وليكن

(١) أخرجه البخاري (٧٢١٨).

انتهاء رمضان انطلاقة إلى حياة سعيدة بالعلم والعمل؛ لأن رمضان مع الصيام قد يُشغل الإنسان عن كثير من الأعمال، لكن إذا انتهى رمضان علينا أن نشمر إلى طاعة الملك الديان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فطلاب العلم يقبلون على الحفظ، والدروس، والمراجعة، والدعوة، وغيرهم مُطالب بذلك، يُقبل على الخير الذي كان يعمله في رمضان ويستمر.

وأسوء الأحوال في كل هذا أنَّ كثيرًا ممن كان يصلي في رمضان يترك الصلاة بعد رمضان ، لأنه يخرج به من الإسلام إلى الكفر، ومن طريق أهل السعادة إلى طريق أهل الشقاوة، ومن أسباب الخلود في الجنة إلى أسباب الخلود في النار، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ**»(١).

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»(٢).

ويا لله كم يخطب الخطباء، ويوجه الموجهون، ويتكلم المتكلمون على شأن الصلاة، وكم تلاحظ من الشباب المنسوب إلى الإسلام من يضيع هذه العبادة أو يتركها أو ربما صلاها بغير وقتها، وهذا لضعف الإيمان في القلوب، كثير من الناس ضعف الإيمان في قلوبهم، وأصبح عباد الأوثان يجتهدون مع أصنامهم وأوثانهم أكثر من اجتهاد هذا مع ربه الذي خلقه، ورزقه، وصوره.

لما كنا في مدينة كولمبو عاصمة سيرلانكا، كنت أسمع أصواتًا مثل التواشيح، من وقت الفجر عند المسلمين إلى وقت الشروق، فسألت عن ذلك،

(١) أخرجه مسلم (٨٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٢١)، عَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو في «الصحيح المسند».

فقالوا: هؤلاء البوذيون، يقومون لعبادة بوذا في هذا الوقت، مشرك، منده، كافر، يعبد صنمًا، ووثنًا، وحجرًا لا ينفع ولا يضر، ويقوم في وقت الفجر، ويبقى إلى طلوع الشمس في معبده يترنم بتلك الترانيم.

ومسلم يعبد الله الذي قال: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة:٢١]، وترى منه الفتور، وأعظم من ذلك أن يترك العبادة، تصبح العبادة عنده قول فقط، يقول: لا إله إلا الله، يقول: أنا مسلم، يقول: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، لكن يصلي ما هناك صلاة، يزكي ما هناك زكاة، يحج ما هناك حج، يصوم ما هناك صوم.

وقريب منه ومثله أيضًا من يقول: لا إله إلا الله، ويقول: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، ويصلي، ويصوم؛ لكن تعلق قلبه بقبرٍ أو وثنٍ أو وليٍّ أو شريفٍ يدعوه، ويرجوه، ويذبح له، أو يطوف بقبره أو ينذر له أو يخافه كخوف الله أو يحبه كمحبة الله، إلى غير ذلك مما يتعاطاه الناس.

فيا أيها المسلم اتقِ الله في نفسك، واحرص على ما ينفعك، والمسلم والمؤمن كيس فطن، أي: أنه عاقل يتفطن لما ينفعه.

والله المستعان.